النتاج الجديد

فلسفة من الصين
للفيلسوف الصيني لين يوتانغ
نقله للعربية الاستاذ منير البعلبكي
دار العلم للملايين – ١٤٤ ص

أول ما قيل في هذا الكتاب « انه اعظم ما اخرج للناس في السنوات الاخيرة » طبع سبع عشرة طبعة في بضع سنين. وكثيراً ما كان الشهر الواحد يستنفد الطبعة الواحدة من الاسواق فيدفع الكتاب الى الطبع من جديد .

ما شأن هذا الكتاب ؟ وما الحقيقة في امره ، والسر الذي يكمن وراء انتشاره وإقبال الناس عليه هذا الاقبال المنقطع النظير ؟

انه كتاب من الشرق ، اياه ، بلد الحكمة والضوء ، يظهر في الغرب هناك ، حيث الأناس باتوا يحنون الى برهة قصيرة من الوقت يريحون فيها اعصابهم ، ويمتعون ارواحهم فيجيء ظهوره كالبلسم شفاء للناس ، وتخفيفاً لحدة التوتر الذي جرّته عليهم هذه الحضارة ، فلا يلبثون ان تخفق له قلوبهم ويجدوا فيه ضالتهم ولذيذ مشتهاهم ، كما لا يلبث هو ان يخلق فيهم بمثل سحر الساحر اجواء وعوالم و « نشاطات » غريبة ، حية ، متحركة ، تسكب في قلوبهم الهناءة ، وتمسحهم بماء العافية ، فيصحون على ارواحهم هانئين ، منتشين مغردين ينشدون المحبة والامان والدعة ويستسلمون الى ضرب من الخدر لذيذ ماتع كسول ينجيهم من تعقد حياتهم وسأم نفوسهم ، وحيرة ضمائرهم واستبداد آلاتهم ، ويرد اليهم — ولو الى حين — إنسانيتهم السليبة الضائعة في مثل لمح السينا وحديث الغاشية .

هذا الكتاب ليس كتاباً في التفكير المجرد ، او المنطق العقلاني ، بل فلسفة منبثقة عن حياة كسول في جيل غير الذي نعيش فيه ، فلسفة في الحياة تمثل وجهة نظر شعب بأسره كما عبر عنها في ادبه وحكمته الشعبية ، تريك الفيلسوف الصيني « فيلسوفاً يحلم وإحدى عينيه غير مغمضة ، ينظر الى الحياة في محبة وسخرية ، ويمزج تهكمه بتسامح رفيق ، ولا يكاد يفيق من حلم الحياة حتى يغلبه النعاس من جديد » هذه الفلسفة التي ليس لها بالمعنى الجيد او بالمعنى الرديء نظير في العالم كله ، ذلك بانها نظرة تختلف عما نألف ، صادرة عن ضرب من العقل غريب عما تعلمنا ، هي بسبب كونها كذلك تخلب عقل القارىء ، وتملك حواسه فتجعله يقبل على الكتاب في رغبة ملحة وحماس بالغ يمدانه بيقظة عجيبة مطردة تمكنه من العثور على اجوبة جديدة لمشكلات الحياة ، وطرائق جديدة لفهمها ، بل على طرح جديد لهذه المشكلات نفسها في منطق صبياني ولغو نسوي بارع الى درجة يبهرك فيها هذا الفهم الغني للفلسفة عند الصينيين، والاحساس المباشر والحميم بالحياة والنظرة التي هي في جوهرها اقرب الى نظرة الشاعر منها الى نظرة الفيلسوف .

يقول لين يوتانغ : ان العالم جدي اكثر مما ينبغي ، وهو بهذا الوصف بأمسّ الحاجة الى فلسفة حكيمة مستبشرة ، فالفلسفة البهيجة هي وحدها الفلسفة العميقة . إذن فينبغي علينا ان نكون واقعيين ، والمهمة الرئيسية لروح الواقعية هذه هي إقصاء كل ما هو غير اساسي عن فلسفة الحياة ، والتعلق بتلابيب الحياة كما هي ، خشية ان تحملها اجنحة الخيال الى عالم تصوري جميل ولكنه غير حقيقي . وليس من ريب في ان الحكمة في الحياة تقوم على تنحية النوافل والفضول ، وتنخل مشكلات الفلسفة وحصرها في شؤون معدودات هي الاستمتاع بالحياة البيتية وبالعيش والطبيعة والثقافة كما تقوم على التخلص من كل سعي وراء المعرفة ، وهكذا تصبح مشكلات الحياة عند الفيلسوف الصيني قليلة جداً ويسيرة جداً . وهي تعني ايضاً ضيقاً بما وراء الطبيعة وبالتماس المعرفة التي لا تترك آخر الامر أيما اثر عملي في الحياة نفسها ، وتعني الى ذلك ان كل نشاط إنساني سواء أكان اكتساباً للمعرفة او اكتساباً للأشياء يجب ان يخضع في الحال لامتحان الحياة نفسها ومدى ما يؤديه من خدمة لهدف العيش وغايته . ثم ان غاية العيش — وههنا نتيجة ذات خطر — ليست كائناً ميتا فيزيقياً ولكنها مجرد العيش نفسه . »

بهذه الواقعية وبضرب من الازدراء العميق للمنطق وللفكر نفسه يقرر الصيني فلسفته في الحياة فهو يحسها إحساساً لا دخل فيه للعقل ولا شأن للتفكير « فالصيني الناضج هو دائماً شخص يرفض ان يفكر كثيراً جداً ، ويأبى ان يسجن نفسه في أيما نظام فلسفي صارم ؛ إن المذاهب والاديان كلها نظم رائعة في ذاتها غير ان التابع لمذهب ما ليس غير طالب من طلاب الفلسفة ، بينما الانسان هو تلميذ الحياة بل لعله سيدها .

وهكذا يمضي لين يوتانغ في كتابه فيعرض انواعاً من النظر الى الجنس البشري ، فيحلل وجهة النظر المسيحية التقليدية في

خلق الانسان ووقوعه في الخطيئة ، ويفسر نشأة الشيطان و « اختراع الروح » والقول بالفداء ، الذي يستمد اصوله من الفكرة الرائجة عن الحمل القربان التي ترجع بدورها الى الفكرة القائلة بوجود إله محب للحم المحمّر غير قادر على ان يغفر للناس ذنوبهم من غير مقابل » ثم ينتقل الى وجهة نظر العالم الاغريقي الوثني الى ان يصل بنا الى وجهة النظر الصينية التي تعتبر ان الانسان سيد الخليقة له في حياته — وهو لا يعدو ان يكون روحاً حلت في جسد — بعض العواطف والرغبات وفيض من الطاقة الحيوية او الطاقة العصبية ، وليست هذه في ذاتها صالحة أو طالحة ولكنها مجرد شيء لا ينفصل عن الحياة الانسانية السوية ، فلجميع الرجال والنساء شهوات ورغبات طبيعية وآمال نبيلة وضمير ، وانما تقوم الثقافة على التوفيق بين ضروب التعبير عن هذه الشهوات والرغبات وإيقاع الانسجام فيما بينها .

وليس من ريب في ان ايما فلسفة عملية صالحة يجب ان تتخذ من الاعتراف بواقعية الجسد نقطة انطلاق لها . ان اوضح الحقائق التي يتعامى الفلاسفة عنها هي اننا نملك جسداً ويضيق مبشرونا ذرعاً بنقائصنا وغرائزنا الوحشية فيعبرون في بعض الاحيان عن اسفهم لأننا لم نخلق على شاكلة الملائكة ، ومع ذلك فان مجرد التفكير في ما يمكن ان يكون عليه حياة الملائكة خليق به ان يربكنا ويذهلنا . فنحن بين امرين : إما ان نعطي الملائكة جسداً وشكلاً كجسدنا وشكلنا في ما عدا جناحين اثنين وإما ان لا نفعل . ومن الطريف ان تصوّر الناس العام للملاك لا يزال على صورة جسد بشري ذي جناحين . واني ليخامرني الظن في بعض الاحيان بان من مصلحة الملائكة انفسهم ان يكون لهم جسد وحواس . ولو قيض لي ان اكون ملاكاً اذن لرغبت في ان تكون لي بشرة كالتي لفتيات المدارس . ان فكرة الروح التي لا حس بها لا تستطيع ان تنهض على قدميها بعد إذ اخذنا نشعر اكثر فاكثر بان الكون نفسه كائن حساس ، ولعل الحركة لا الوقوف ستكون احدى خصائص الروح وستكون للملائكة ثمة اصبغة روحية تمكنهم من ان يتمتعوا بنوع من الخلق والابداع ، والا فان الروح نفسها قمينة بان تفسد كما يفسد الماء في البالوعة .

وبعد ان يقرر لين يوتانغ اهمية هذا الجسد البشري يعود فيوضح ان ثمة نتائج خطيرة تلزم عن ملكيتنا لهذا الجسد . اولها اننا غير مخلدين على الارض ، وثانيها ان لنا معدة ، وثالثها ان لنا عضلات ، وآخرها ان لنا عقلاً طلعة كثير الفضول ، وهذه الحقائق عميقة الاثر في الحضارة الانسانية وهي لوضوحها البالغ قليلاً ما تكون محل تدبرنا وتفكيرنا ولكننا لن نفهم انفسنا وحضارتنا ما لم ننظر في هذه النتائج ونفهمها احسن الفهم .

ومن النتائج لكوننا حيوانات ان لكل منا ذلك التجويف الذي لا قعر له والذي ندعوه المعدة . فمن هذه المعدة الحسنة الامتلاء تشع على وجه الصيني سعادة روحية حقاً . ذلك ان الصيني يعتمد على الغريزة وان غريزته لتعلمه بانه حين تكون معدته في احسن احوالها سيكون كل شيء حسناً .

وعلى هذا النمط يجري لين يوتانغ فيبين نتيجة كوننا ذوي عضلات قوية وكوننا ذوي عقل وكوننا بشراً كما يفسر نشأة الحضارة الانسانية في فصل عميق رائع ينتهي منه الى القول بأن بساطة العيش والفكر اسمى واسلم مثل اعلى للحضارة والثقافة وان من شروط البساطة روح الدعابة ورشاقة الظرف التي تجعل المرء في نجوة من مختلف ضروب التمهل المصطنع والتمويه الكاذب واللغو الثقافي والبلاهة الاكاديمية والخداع الاجتماعي .. فانما يصبح الرجل حكيماً حين يغدو فطناً ظريفاً سريع الخاطر .

ومن ثم ينتقل لين يوتانغ الى البحث في من يستمتع بالحياة احسن الاستمتاع فيرسم خطة العيش التي يحسن بالمرء انتهاجها ليحيا حياة سعيدة قوامها الاعتدال الحلو والقول بحياة حسنة التوازن تقوم في مكان ما بين الحد الاقصى الايجابي والحد الاقصى السلبي : مذهب المناصفة او التساوي الذي يتمثل في رجل « ينشط في كسل ويكسل في نشاط ، رجل غير فقير الى درجة تجعل من المتعذر عليه ان يدفع اجر البيت في ميقاته وغير غني الى درجة تمنعه من العمل إطلاقاً » .

ويختم اخيراً لين يوتانغ كتابه الخطير هذا بفصل عنوانه «عيد الحياة» فيبحث مشكلة السعادة ويقرر انها سعادة بيولوجية حسية تتصل بالسمع والشم والبصر والذوق ، ثم يورد امثلة على ذلك منتزعة من محبي الحياة الكبار ، شرقيين وغربيين يصفون فيها اسعد لحظاتهم الخاصة ومبلغ اتصالها بالحواس ، كل ذلك في اسلوب يصب الرخاء في نفسك ويحشد العذوبة والمتعة واللذة المنبعثة عن تعرية الحياة وانسكاب الفتون ودفق الحرارة اللذيذة الذائبة في كلمات الكتاب وتصاويره القوية المشتعلة واشواقه الرطبة المثيرة بكل ما في كلمة اثارة من حيوية وانفعال ووهج

تجعلك تصفق لهذه الفلسفة وتأخذ بمنطقها بتنبه واستسلام ونشوة فريدة مسترخية لا تلبث بعدها ان تعيد النظر بحياتك وتبدأها من جديد حراً طليقاً مستبشراً ، لا حزن فيها ولا كآبة بل فرح دائم مشبوب يعلمك فن العيش ويخلصك من هموم الحياة.

هـذه واني لاشكر اخيراً الاستاذ منير البعلبكي على اتاحته لي فرصة الاطلاع على هذا الكتاب الجميل كما اهنئه على براعته العجيبة في نقل هذا الاثر الى الآداب العربية من اجل تعميم المعرفة واخصابها في كتب ، ليست مقتصرة على مذهب معين او اتجاه فريد بل تمثل مختلف وجهات النظر ، في الشرق والغرب من لين يوتانغ الى ماوتسي تونغ كيلا تنطبع الاذهان وتجمد ضمن اطار موحد بل تنفتح على العكس وتدرس وتستنير وتصوغ من ثم لها نمطاً من العيش واتجاهاً في دروب الحياة .

احمد ابو سعد

من اسرة الجبل الملهم

معالم الموسيقى العربية

للاستاذ نسيب الاختيار

المطبعة العصرية بصيدا — ١٢٢ ص

كثير من الناس يقرأون الأدب قراءة تقليد ، وما كان بارزاً في اذهان اساتذتهم من المسائل يظل هو نفسه بارزاً في انفسهم واذهانهم ، وهذا هو خطأ الجمود والوقوف عن التطور باستمرار النظرة ودوام الفكرة ، ولكن القليل من الناس يعملون في التجديد إذ ينظرون الى الأدب من نواحٍ لم يسبقوا اليها أو لم تكن هي النقط البارزة عند من سبقوهم ، وهؤلاء هم الموهوبون الذين وكلت الحياة اليهم مهمة التطور والتجديد .

وفي كتاب « معالم الموسيقى العربية » يقرأ الانسان ادباً جديداً منبعه ذلك القديم الذي يقرأه الناس تقليداً ولا يميلون فيه كما مال فيه الاستاذ نسيب الاختيار على وعي وفهم وانصب على التاريخ الأدبي يستنبط منه عيوناً ثرّة فياضة كأنها لم تفض أو لم تنبع من قبل ، فأضاف بجهده الموفق للادب العربي شيئاً جديداً .

وأخص ماوفق فيه المؤلف كان في البحوث العامة والفصول الجامعة ، وقد دل المؤلف فيها على سعة اطلاع ومقدرة على الاستنباط وقياس الأدلة ، ثم دل على مقدرته في الشرح والتبيان في طراز من الاسلوب الحي المعبر الدقيق .

وقد جارى المؤلف في كتابه النظرية المعروفة في نشأة الشعر والغناء معاً توأمين متلازمين أو مخلوقاً خليطاً ، ولكنه اخذ ينفرد ويجيد حين صور تلبيس الموسيقى والغناء لطوائف الناس وعمالهم ومجدوديهم من غير المترفين ، ثم اجاد في بيان اثر السبي والموالي في نقلة الغناء من مرحلة الى مراحل اعم وأشمل ، ثم أحسن حين بيّن ان الشعر كان المقصود لذاته في مادة الغناء في جو الجزيرة العربية ، وهي مرحلة من مراحل الانفصال التي تكلم عنها العلماء ، فبيّن الاستاذ ان العرب كانوا قوماً وسطاء بين قديم الانسان وحديثه ، وعلى ارض العرب اخذ الشعر والغناء ينفصلان ويلتقيان من حيث يحفظ كل منهما مميزاته ويبقي على طوابعه .

ومن اجود ما جاء به حين اخذ في التلويم على الأساطير التي جعلت التأوه اصل الحداء ، والحداء اصل الغناء وجعل يناقشها في قوة ووثوق فبيّن انها لم تكن كذلك في التطور واستند الى ادلة تسند وتنصر من تاريخ الأدب ونصوصه كانت تعمى عنها الأعين وانفتحت عليها عين المؤلف البصير .

وحين أوسع الاستاذ في البحث وراء من احترفوا الغناء وطوروه في العصور العربية والاسلامية المختلفة ، وفي وصف المعارك التي نشبت بين القديم والجديد في غناء الشعر العربي عن لي ان أقترح على الاستاذ المؤلف ان يسمي كتابه معالم الغناء العربي فان القارىء لعنوان الكتاب يكاد يفهم ان البحث سينصب اكثر إلى بحث النغمات وآلات الموسيقى فيصير كتاباً خالصاً لنوع من الفنون ، ولكنه جاء كتاباً ادبياً ، فكان من حقه ان يكون اسمه كما سميت أو كما تمنيت .

وشيء آخر عن لي في هذا الكتاب وهو انه لم يُرجع المعلومات التي جاءت به الى اسانيدها ومراجعها ، وحقاً ان الاستاذ المؤلف كان صادق النقل موثوقاً في الاسانيد ولكن ذلك لا يعرفه إلا المطلعون على تاريخ الأدب اطلاعه ، وهذه غلطة وقعت انا فيها في بعض كتبي ثم رجعت عنها واتبعت الطريقة الجديدة ، وحبذا لو عاد المؤلف في طبعاته التالية لهذا الكتاب فأرجع الاصول الى مواردها ليزيد الكتاب ثقة في نفوس الناس وليصير مرجعاً لمن لا يستطيع ان يرجع الى الموارد الاولى .

وأنا حين أعتب على حروف المطبعة التي تركت بعض

الاخطاء اهنيء الاستاذ المؤلف من قرارة نفسي على جهـــده الموفق واتمنّى له ان يكثر من هذا الانتاج الجيد كما اتمنى لنـا — نحن القراء — ان نظفر بامثال المتَع التي ظفرنا بها في اثناء هذا الكتاب .

عبد العزيز سيد الأهل

من شعر ناظم حكمت

ترجمة الدكتور علي سعد

مطبعة الاستقلال — ١٧٥ ص

●

يقال في الحسن انه الشوق الى الحسن! ولا ادل، على ذلك، من القصيدة عند ناظم حكمت . فهي لا تري جمالاتها دفعـــة واحدة ، بحيث يسهـل التخلي عنها بقدر ما يسهل امتلاكها ولكنها كالمرأة اللبقة ، كشهرزاد تحدّث الف ليلة وليلة ، قبل ان تطعم بما تطعمه الاخريات والذي يستجيل ، بعد هـــذا الاغراء الممتـع ، شهداً ذا حلاوة مسكرة خاصة . ولها جوار انيس كجوار الحكايا ، فما تشعر معها بسأم او حرج . تقرأ ، فلا تسأل عن مقبل الطواف ، ما هم ان تخلد الى سكينة اللقيا ، او تبقي على اهبة للمفاجآت . فالنهاية ليست شوطاً في القصيدة .. انت في اللحظة ، في بهاء اللحظة ، سامر لا يبتني القصور او يأبه لما يشغل الآخرين ، بل يعيش في نعيم من ضوء القمر ، ونكهة الحبيبة ، وسكون الليـل . نداء هنا ، ونداء هناك .. حنين هنا ، وحنين هناك .. اشياء كثيرة تفاجئك ، فتنسيك ما قبل ، وتذهلـك عما بعد ، وتشعرك بانـك ، ابداً ، في الطريق ؛ في روعة الطريق .

فقصيدة ناظم حكمت ، ما سعت مـرة في ركاب فكرة جديدة تفلسف الاشياء ، وتقيم لها تفاسير جديدة ، وانما كانت ، دائماً ، حلم طفل بالدمى في ليالي الاعياد .. انها الحنين الى كل ما يخصب الذات الشاعرة : الحنين الى الحرية ، الحنين الى الحب ، الى الشفـاه العنابية الناضجة ، والخصور المستديرة ، والنظرات المختصرة ، الحنين الى الرفاق الذين يناضلون دفاعاً عن قضية من اجلها سُجن ، ومن اجلها حمل المعركة في قلبه ، الحنين الى الشمس التي تخلـع الضوء على الترابـة ، والحشرة ، واللص ، وتمنعه عن ناظم حكمت .. فهذا الشاعر ، الشاعر دائماً وابداً ، الموقـظ الفرح في كل قلب ، لم تمنعه قسوة الحياة ، من ان يفرح ، هو الآخر ، وان يحـلم ، في العتمة ، بجمالات الحياة . وكأن الحياة — هذا الدفق من الخير — ارادت ان ترد ، لهذا الرجل ، بعض جميله ، فوهبته العزاء ، ومحبة الناس . ما يمنع ناظم حكمت ، بعد ، من ان يقول ، وهو يعلم بان ، لكل من كلماته ، رنيناً منشرحاً في اكثر من قلب ، وبهجة تحاكي بهجة عبد نائم يحلم بحريته .

وهكذا خرجت الكلمـة عنده من حدود الغناء في البرج العاجي لتصبح غنـاء في الدروب ، وفي اكواخ المساكين .. فكأنهـا قطعة من الضوء تشيـع الرجـاء في النفوس المفتقرة الى الضوء ، وكأنها السلاح السحري الذي ينتصر به الفقير على فقره ، والبائس على بؤسه ، والافاق الملعون على عبث طوافه . والآية في ذلك ، ان هذه الكلمة لم تكتئب مرة بان تكون الهنيهة التي يلتقي فيها الوجود بالعدم ، بل كل نقيض بنقيضه ، وكأنهـــا مسميات لا تعني شيئاً ، وانما جاءت دائماً تعلن عن انها قضية وهكذا يتاح لها ، بيسر وبساطة ، ان تغمس القارىء في صميم الحركة الشعرية ، وتنتهي به الى ايجابية في الموقف ، بان تجعله شاعراً يعطي فيما هو يقرأ — انه لم يعد يتقبل وحسب .. بـل يحرك القضيـة في نفسه ، ويحيا الحالة الشعرية التي عاشها الشاعر بكل خلجة وبكل انخطاف .

وفي صحبة الكلمة هذه ، انت ناظم حكمت .. انت الشاعر الذي اضطهد وسجن وتغرب بين اهله واصدقائه ، وأريد على ان يطفيء الضوء المشع في ضميره .. انت الكريم الذي اعطى وما بخل ، في سبيـل ان تحتفظ البقاع التركية باجمل ما تملك ، « الامل ، والحنين ، والحرية ، والاولاد » .

ذلك ان ناظم حكمت اقتنع اخيراً بانه انسان عادي ، عادي جداً كهذا المتشرد الذي يجوس خلال الشوارع والطرقات ، فلم يقم من غروره حاجزاً بينه وبين الواقع المر الذي يرهقه ، ويرهق الملايين امثاله . فلا الثقافة الغنية ، ولا حرمة الشاعر ، ولا سمو الرجـل ، كانت لتحول بينه وبين القيد . هنا ادرك عبث الحياة ، عفواً ، بل سخاء الحياة التي منحته الجرأة على ان يكون واحداً من هـــؤلاء « الجبناء والشجعان ، المجندلين المكدسين كأكوام الضمادات والاحذية والجلود ، الذين يبدعون كل شيء حـــتى الشتائم ، والذين قيل عنهم ان ليس لديهم ما يخسرونه غير اغلالهم » .

وفي الساحة ، تعـلّم كيف يواجه الشر بعناد لا يستبد الا

بأبله او برسول ، ليحمل قصائده ، بعد ذلك ، هذا الطابع الثوري المتزن . فهو لم يكتف مرة بتصوير الواقع بما فيه من مرارة ، وعذاب، وحرمان ، بل يروح يستغل الواقع ليوميء الى الخلاص .

وما احسب التقاء الشعر بالحركات الشعبية والوقائع اليومية عملاً هيناً . فالمواضيع العادية المتشابهة هي اخطر المواضيع التي يتناولها الشاعر . ولن يتاح إلا لامكانية انسانية خارقة ان تلحظ الشعر الذي يكمن في كل ما يتراءى قريباً ، مألوفاً ، مملاً واكاد اقول بائساً . اما ناظم حكمت فقد عرف كيف يبدأ في الشارع ، وينتهي دائماً شاعراً . وهذا ، لعمري ، شاهد على ان الموضوع يتضاءل ، بل يمحي حيال الخالق ، وان بوسع الشاعر ان يحتفظ بشاعريته سواء داعب التجربة العميقة التي عاشها أو غمس ريشته في جراح العالم حوله ..

★

وانه لجهد ميمون ان تغنى المكتبة العربية بشعر ناظم حكمت الذي نقله الى العربية الدكتور علي سعد ، وقد يفجأ البعض ، في الكتاب ، ما يخرج على المألوف في التعبير العربي . وربما جرؤ احدهم ، فاتهم الناقل بالحاجة الى معالجة القول العربي الصحيح . لا ، فالمشكلة ليست هنا . وشاهدي على ذلك هذه المقدمة الرائعة المشرقة باصفى ما يميز الكلمة العربية من حرارة واستقامة ودقة في الدلالة .

ولكن السر يتضح متى أدرك القاريء موقف هذا الناقل من القضايا . فهو لا يؤمن الا باللحظة الاولى من كل عمل ... وما يلي ذلك ليس الا اضواء تبرز الشكل الذي كان قد تحدد في ذهن الخالق ، فمتى اشرقت الهنيهة الملهمة في الخاطر ، تأخذ الرعشة شكلاً معينا وواضحاً في النفس .. ثم تأتي الكلمات .. ومن هنا كان الفارق بين شاعر وشاعر : بين شاعر يبحث عن الكلمة وشاعر يبدع الكلمة، بين شاعر تستعبده الكلمة، وشاعر يستعبد الكلمة . بين شاعر يقيم الكلمة صنماً ، وشاعر يعذب الكلمة ويصلبها حيث يجب ان تكون .. فالتعبير في القصيدة، اكثر من قول جميل . انه الحركة في الشكل ، بحيث تصبح الكلمة مسؤولة تجاه اللحظة الاخيرة .. أمثل على ذلك بالرقص: نحن نصفق للراقصة ، ساعة تكمل الرقصة ، وفي وجودنا متعة وانشراح .. لقد رأينا امراً عجيباً، رأينا الحلم الذي لا يؤسف المرء بعده ان يموت .. امرأة تسخر كل شيء : الضوء والحب، والذكريات والمستحيل ، والمتفرجين ، وهي ، لتكون الرقصة الجميلة . اما كيف أمكنها ذلك ، فنحن لا نسأل . وهل أتفه من السؤال في حضرة الجمال ؟ بيد أن الراقصة تعرف أن كل حركة جاءت في مكانها : شهقة الحصر هذه ، وهذه الانتفاضة المباغتة ، وهذا الاهتزاز المريب، وهذه الحركة الدائمة التي تنشد السكون . فكل حركة تمهيد للحركة التي تليها ، وكان يكفي أن تتقدم حركة رفيقتها ، لتخسر المرحلة التي تفسدها ، فتفشل الرقصة ، أو تنتهي بنا الى رقصة ثانية ، ربما تكون جميلة ، ولكنها، على كل حال، شيء آخر . ففي الرقصة ، تفترق الطرق عند حركة . وكذلك القول في القصيدة ، وفي القصيدة المترجمة خاصة . فحيال القصيدة ، ينتهي بالنسبة للمترجم ، كل ادعاء بالابداع ، وإنما ينحصر إبداعه في نقل المتعة الجمالية التي تحدثها ، وبنفس الحرارة التي يحسها المرء حين يقرأها بلغتها الاصلية . ولن يتم له ذلك الا بالمحافظة على الفعل الشعري في القصيدة ، على الانخطاف الذي تثيره لأول وهلة . وهنا تبرز مسألة الطريقة في الترجمة : أهي الترجمة الحرفية التي تحفظ الفعل الشعري على قدرته في تحريك القوى الأخاذة عند القاريء ، ام الترجمة التي تهدف إلى سكب القصيدة المترجمة في قالب عربي صرف ؟ أما الدكتور علي سعد فما اختار طريقة ، لان الطريقة تقف بين الشعر والقاريء، وإنما توخى الابقاء على البراءة التي تصل بينهما بلا كلفة وبلا شرح . وهذا ما حدا بالدكتور علي سعد إلى أن يترجم ناظم حكمت ترجمة توهم بانها حرفية ، ولو اضطره ذلك إلى مفاجأة الخاطر الذي اعتاد نحواً من التعبير يفترضه الاكمل ، كأن القول نغم عتيق معروف ، يجب أن ينتهي إلى قرار معين .. ومن يجرؤ فيقول بأن التعبير العربي — كما انتهى الينا — قد بلغ وجهه النهائي ؟ وهل في التعبير وجه نهائي ؟ من مآسينا أن نتذرع بالبلاغة وغيرها من ضروب البيان ، لنستر العقم في الفكر . أجمل البلاغة بلاغة تجيء .. لا بلاغة يسعى اليها المرء ، كالشهقة حيال جمال ، هي تشرق فجأة في حواشي القول، ولا يتعمدها القائل . فالبلاغة لم تخلق العباقرة ، ولكن العباقرة خلقوا البلاغة . ولكن ما لي ولهذه الأسماء المدرسية الباهتة ؟ كل ما في الامر انهم خلقوا قولاً جميلاً سماه الناس « بلاغة » ، سيبقى لهم رهف جمالي يقلق الفتنة في كل قول ، وللناس أن يسموا .. فأنا عندما أمسك كتاب « من شعر ناظم حكمت » وأقرأ قصيدة « إلى بيير لوتي » لا يفسح لي بأن أسأل اهي بليغة أم غير بليغة ، أم انها بلاغة من نوع جديد ، ولكنني أعرف انني

في نقلة جمالية ماتعة ، وهذا يكفي . الله ، الله ، من هذا السحر الشائع .. هنا يتغلب الاطمئنان الفني على الحقد ، والشعر على السياسة . هنا تقرأ قصيدة جميلة قبل ان يثيرك موقف فتى شرقي من شاعر فرنسي لم يرَ قذارته وقذارة البائسين أمثاله . بل تغنى بقصور الشرق ، وليالية الراقصة ، وسمائه الصاحية الزرقاء وامبراته المضيئات خلف حجاب كأنه « سحابة رقيقة تمر على وجه البدر المنير » . وبنفَس يكاد يسكره انسياقه ، استطاع الدكتور علي سعد أن « يتآمر » مع ناظم حكمت على بيير لوتي ، وكلاهما يتساءل أيها أجاد أكثر ، مدللًا بذلك على شاعرية تحتفظ ببهائها حتى في الترجمة ، وفي نقل الحب والكره من لغة إلى لغة .

الغاز .. خنوع .. وقدر
اقفاص ، وقصور وقوافل
وشلالات .
فامضين يا اميرات .. وامضين يا حوريات
يا من يرقصن على صينيات من فضة .
مهراجاه ، باديشاه ، وشاه من الف وسنة .
فكأنما تتدلى من المآذن حوافر من مرجان
ونساء مخضوبة بالحناء ، تدفع بارجلها انوال التطريز .

هذا هو الشرق ، الشرق كما رآه الشاعر الفرنسي ، الشرق الصافي والحالم كما يبدو في الكتب التي تطبع منها ملايين النسخ في الدقيقة .

انما لا البارحة ، ولا اليوم ، ولا غداً ،
لم يوجد ، ولا يوجد ، ولن يوجد هكذا شرق !
الشرق ، مشرق الشمس ، ترى ام حمم ،
حيث العبيد ، العبيد العراة تقضي جوعاً .
بلاد البؤس ، وملك الجميع ما عدا الشرقي .
لقد سئمت آسيا .. سئمت كل هذا ،
والشرق لم يعد يريد ان يبلع هذا الحساء ...

وما القول في قصيدة « منذ اصبحت في الداخل » و « انهم لا يدعوننا نغني » و « الرسائل الى تارانتابو » و « عيشن » و « الرجل الذي يمشي » و « ملحمة حرب الاستقلال » و « الثلج يسقط في الليل » ورباعيات و « رسائل وقصائد » ؟

لا ، لن اقول .. فللسكر طعم لا يذيقه اي تفسير ، وللجمال ألقٌ لا يغني عنه اي تشبيه أو تقريب .. بل سأقدم للقارىء مجموعة من الشعر كالطفل تضحك وتجهش في يديه ، وتثب ، على هواها ، الى حضنه وعنقه وفمه ، وتهتف به : هويناك يا ابن القرن العشرين !. فقد توقف المسافر وردةٌ متواضعة في جنب الطريق .

ويحسبك ان تهيج الوردة ، لتملأ انفك بالعطر .

احمد شحادة

من اسرة الجبل الملهم

ديوان القروي

للشاعر القروي رشيد سليم خوري

سان باولو — مطبعة صفدي التجارية — ٩١٦ ص

هذه نظرة خاطفة في ديوان القروي ، هذا الشاعر الذي يُعدّ بحق في طليعة شعرائنا المعاصرين الذين فهموا رسالة الشاعر فهماً عميقاً صحيحاً . فقد كرّس الاستاذ رشيد سليم الخوري شعره لمناهضة الاستعمار وتحطيم الطائفية وتمزيق الجهل وإيقاف الطغيان عند حدّه ودقّ المسامير في تابوت الرجعية . وهو فوق ذلك من الشعراء الذين يجرفون ولا ينجرفون ويعطون اكثر مما يأخذون ، فكل قصيدة من قصائده إنما هي قطعة دامية من قلبه ونفثة مستعرة من روحه وصرخة داوية من جوارحه واعماقه . وهو من الذين تنقاد لهم الالفاظ بذلة ما بعدها ذلة وتستسلم لهم المعاني بخضوع ما بعده خضوع .. فهو من هذه الناحية فنان أصيل يترفع عن وضع الأردية النفيسة على الأجساد القبيحة كما يصنع شعراء الصناعة الذين جفّت قلوبهم وماتت أخيلتهم وتحجرت مشاعرهم ..

والمعروف عن الشاعر القروي انه شاعر قومي كبير ، بيد ان أفق شاعريته واسع جداً وله قصائد إنسانية رائعة رفعته الى قمة الشعراء العالميين الخالدين . ومن هذه القصائد « الشر الكبير والخير الكبير » ص ١٤٨ و « حضن الام » ص ٨١٩ و « تسبيحة الحب » ص ٨٠٧ و « اين وجدتُ الله » ص ٨٢٧ و « تنديل [1] » او وداع تنديل المنشورة في ص ٨٦٥ والتي تعد بحق من الملاحم الشعرية العصرية المشحونة بأجمل الصور وادقها واصدقها واعمق المعاني وارقها . فبعد ان يصف الشاعر اشواقه واحلامه يطرق كعادته باب الحماسة بعنف مدهش :

(١) تنديل مصيف ريفي بين بونس آيرس وثغر نيكوتشيا .

فقل لشعبٍ رام ان يستقل ليس وراء اليأس غيرُ الفشل
وانما ينقل هـــذا الجبـــل بالهمّة القعساء لا بالكسل
والعزم لا إيمان اهل الخمولْ

ثم يثور على النائمين ثورة يائس ضاع نصحه فيهم سدى :

وقل لمن ضلوا سبيل الهدى وضاع فيهم كل نصح سدى
يا وطني منك نفضتُ اليدا فمن يحاول عنك دفع الردى
حاول أمراً دونه المستحيل ! !

ولكنه سرعان ما يحطم يأسه على صخرة عزمه وحبه لشعبه فيصرخ من اعماق قلبه :

لا ! لا ! ستحيا رغم انف الزمن بل انت حي رغم هذا الكفن
مادام حرٌ واحد في الوطن فهو بهـــذا الحر حرٌ وإن
عاش به مليون عبدٍ ذليلْ

* * *

ولنستمع قليلاً الى « اعاصيره » التي تزأر في سكون جمودنا واستسلامنا وسنجد في قصيدة « عيـد الفطر » ص ٣١٤ كل ما نصبو اليه من اخاء صادق وتحطيم للطائفية العمياء التي شتتتنا وجعلتنا لقمة سائغة في فم الاستعمار :

اكرّم هذا العيد تكريم شاعر يتيـــه بآيات النبي المعظّمِ
ولكنني اصبو الى عيدِ امةٍ محرّرة الأعناق من رق اعجمي
الى علمٍ من نسج عيسى وأحمدٍ و « آمنة » في ظله اخت « مريم »
هبوني عيداً يجعل العرب أمةً وسيروا بجثماني على دين برهمِ
فقد مزّقت هذي المذاهب شملنا وقد حطمتنا بين نابٍ ومنسمِ
سلام على كفرٍ يوحّد بيننا واهلاً وسهلاً بعده بجهنّمِ !

ومن روائع القروي في باب « الزمازم » قصيدة « لحيٌ » التي رثى بها المغفور له الملك فيصل الاول . وتعدّ هذه القصيدة في نظري من اروع واصدق واعمق المراثي التي قيلت في الملوك . وقد القى القروي هذه الخريـــدة في مسرح « سرفنتس » في « بونيس ايرس » آخر عام ١٩٣٣ بدعوة من الجالية العربية . وقد بلغ من حماسة ألوف الحاضرين خلال إنشادها وبعـده ان عقد نائب رئيس الجمهورية الارجنتينية يده في يد الاقرب اليـه وهذا في يد من يليه حتى تألفت سلسلة من الايدي بلغ آخرها يد الشاعر على المنبر وهزوها جميعاً هزة الاعجاب . وهي قصيدة طويلة تبلغ المئة بيت . استهلها الشاعر بالاشادة بوطنيـة الملك البطل المغفور له غازي الاول وبتصوير مواقفه الرائعـــة ضد الاستعمار ومن ثمّ اشاد باعمال الفيصل وبالخسارة الكبرى التي حلت بالعرب بفقده . وحسبك ان تعلم بان كل بيت من هـذه القصيدة لا يقلّ روعة عن هذه الابيات التي خاطب بها المرحوم فيصل الاول :

وكنتَ لاجل المجد بالمال زاهداً وكنتَ لاجل العرْب بالمجد زاهدا
وكم خضتَ لاستقلال شعبك لجةً وكم جبتَ آفاقاً وكم جزت فدفدا
بعيد المنى لم تلق مرساة مطمحٍ الى المجد إلا سامك المجد ابعدا
مشيت له تستبطىء البرق مركباً وادركتَه تستوطىء النجم مقعدا
ارح كبداً حمّلتها كل فادحٍ من الهمّ يُعيي الشمّ لو كنّ اكبدا
طعام على مضٍ وشرب على قذى ومشي على جمر ونوم على مُدى
صعدتُ جبال الالب تنشد راحة وعدت كأن الالب في القلب صعدا
كلا كل هم لو انيخت « بيذبلٍ » لعاد « بزوفاً » يقذف الجمر والردى

* *

وللقروي قصائد غزلية تنضح صدقاً ورقة وعمقاً وروعـة وجمالاً جمعها في باب « زوايا الشباب » من ديوانه الجديـــد . ويكفي ان اشير الى قصيدته الجميلة « لبستُ الى العذراء » ص ٧٠٧ وهي حكاية قصيرة وبسيطة ولكن خيـال شاعرنا العظيم صبغها بالوان ساحرة . استهل الشاعر قصيدته بهذين البيتين :

لبستُ إلى العذراء جبة راهبٍ من الليل لم تعلق بها كف ناسج
وبتّ حيال القصر ارعى إشارة بابيض يعني جىءْ واحمر لا تج

إلى ان يقول :

فلما أزيح السجن اورق طالعي وازهرَ في منديلها المتماوج
وراح فؤادي واثباً في أضالعي كوثبي في اعطاف تلك المدارج

ثم يعانق الشاعر حبيبته عناقاً حـــاراً ويصف هذا العناق وصفاً رائعاً لم اجد له نظيراً في شعرنا العربي :

وقعتُ عليها وهي في رعدة الهوى فلاذت بصدري تصطلي بلواعجي
ورحتُ بروض النهد والخد عابثاً أنقل كفي بـــين فج وناضج
وعين الهوى تحت الظلام بصيرة بما عنه تعمى تحت نور المسارج
وكم فاز من دنيا الهوى عدم شاعر بما عجزت عنه كنوز المهارج
فقالت وقد أحرجتها بدعابتي لك الله فانهج غير هذي المناهج
تعلمني في الحب عادات شاعر وتنزلـني منها على غـير دارج
فقلت ذريني انتهب فرصة الهوى وأقضي من العمر القصير حوائجي
بصدري كنوز للغرام خبيئة وهذا الذي شاهدتِ بعض نماذجي
فتنتُ الغواني قبل ما طرّ شاربي فدائي داء مزمن لا تعالجي !!.

* * *

وبعد فجـدير بكل عربي يحسن القراءة والكتابة ان يقتني او يطالع على الاقل هذا الديوان النفيس الذي ضم بين دفتيه آلام واحلام وآمال أمته مثلما ضم أصدق وأعمق الأحاسيس التي جاد بها القلب البشري في كل العصور ...

بغداد **حارث طه الراوي**